شخصية الطفل

وأثرها فى حياة الرجل

للأستاذ عبد الشافى اللبان[1]

سيداتى . آنساتى . سادتى :

موضوعنا الليلة "شخصية الطفل وأثرها فى حياة الرجل". وقد ترددت كثيرا قبل الكلام فى هذا الموضوع لبعد صلتى عنه . ولشعورى بأنه خارج عن اختصاصى . فلست من علماء التربية الذين يهتمون بنفسية الطفل وتنمية مواهبه وعقله وتفكيره . كما أننى لست طبيبا يعنى بصحة الأطفال وعلاجهم من الناحية البدنية ، ولست بعد هذا وذاك والدا يستطيع أن يتحدث عن الأبناء بخبرة الأب وتجاربه . ومع ذلك أقدمت على الكلام بصفتى شخصا محايدا ولعلكم توافقون على أن النظرة المحايدة قد تكون أحيانا أقرب إلى الصواب من رأى أملاه الغرض .

ولتفكيرى فى هذا الموضوع قصة أرجو أن تسمحوا لى بسردها عليكم . كنت فى أحد أسفارى مع صديق لى يشتغل بالتدريس فى الجامعة المصرية نمر فى مقاطعة "دوفينيه" بجبال الألب الفرنسية وعاصمتها مدينة جرينوبل التاريخية المعروفة بجامعتها الشهيرة وهى بقعة أمدتها الطبيعة بكثير من عناصر الجمال . وتصادف أن وجدنا فى طريقنا إلى إحدى القرى جمعا من الأطفال الصغار يلعبون فى شارع القرية . عندما وقعت أنظارهم على سيارتنا قابلونا بترحيب يشبه تغاريد العصافير . رافعين أيديهم بتحيات لطيفة مرحة مليئة بالإيناس والبشاشة .

وبعد أن تركنا القرية التفت إلى صاحبى قائلا أتدرى إلى أى مكان نقلنى منظر هؤلاء الأطفال لقد نقلنى إلى مصر . قلت وكيف كان ذلك ؟ أجاب ألم يحصل لك مرة وأنت مسافر بالقطار فى بلادنا أن اتخذ الأطفال من وجهك هدفا لإلقاء الحجارة ؟ أو استقبلوك بصيحات منكرة على سبيل الفكاهة والتسلية ؟ .

من هذه الساعة بدأت أفكر فى الفرق الشاسع بين أطفالنا وأطفالهم حتى أتاحت لى وزارة الشؤون الاجتماعية فى هذه الليلة فرصة كريمة ومشكورة لأعرض على حضراتكم نتيجة هذا التفكير .

---

(١) محاضرة ألقاها حضرته من محطة الإذاعة اللاسلكية .

الطفل فى أوربا فى نظر جميع الناس رجل صغير من حقه أن يتعلم ويفهم ، له أن يسأل عما لا يعرف وأن يجاوب فى صراحة عما سأل ، هو صديق لكل إنسان ، يدلل ويعزز ، ولكن عليه أن يجامل بالتحية اللائقة الظريفة ، من يدلله ويعززه ، وأن يقابل عمله بالشكر الرقيق . يكافأ على حسن تصرفاته ، ويجازى فى رفق على السيء منها .

لذلك تراه يقبل عليك كما يقبل الصديق فتجد عنده مادة حلوة للحديث . يفهم مسئوليته على صغرها ويدرك ما عليه من واجبات . وما له من حقوق . يميز بين الضار والمفيد . له شخصية ، وفيه حياة . ينشأ فى عائلته ومحيطه على النظام والطاعة ، فاذا ما كبر ونما عوده ، أصبح وزملاؤه ممن يكونون جسم الأمة رجالا تعودوا المسئولية متعاونين متضامنين فى تحمل أعبائها مدركين لواجبهم الوطنى وواجبهم الشخصى ، يظهرون فى الأزمات كالبنيان المرصوص أقوى ما يكونون تساندا وأروع إيمانا وثقة بوطنهم ومواطنيهم ، يضحون بالنفس والنفيس ، دفاعا عن المثل الأعلى ، أو انتصارا لفكرة عامة . لذلك كانت هذه الأمم غنية بالعباقرة من رجال العلوم والفنون والسياسة ، وكانت حياتها أمثلة رائعة فى المجد والبطولة .

أما عندنا فالطفل مجرد لعبة يعزز ويدلل ، كما لو كان حيوانا صغيرا ، مفروض فيه فقط أن يدخل السرور والمتعة على نفوس والديه . إذا بدأ الكلام يطلب منه بين الضحك والقهقهة ترديد العبارات البذيئة السمجة وتوجيه الشتيمة المختارة المنتقاة إلى أبيه ، وأمه ، وأعمامه ، وأخواله ، وبعض الأعزاء من الضيوف والمعارف ، الذين رفع التكليف معهم . وإذا بدأ يتصرف يطلب إليه أن يكسر ، ويضرب ، ويكذب ، ليكون خفيف الروح والظل على سامعيه ، وإذا بدت عليه مخايل النجابة — والنجابة هنا معناها طول اللسان — زينوا صدره بالتمائم والأحجبة لتقيه عيون الحساد . وإذا ما شق عصا الطاعة وأعلن عصيانه على الأوامر ، هددوه بالجن والعفاريت ، وعساكر البوليس ، ثم هم بعد ذلك يشجعونه على الأكل ، كلما وقعت أنظاره على الطعام ، دون ميعاد أو إحساس بالجوع ، كأنما يربونه على أن يعيش ليأكل ، ويدفعونه إلى طلب النقود ، وإلى الإلحاح فى الطلب بما يشبه الاستجداء والشحاذة . وهى عادة فى غاية القبح يضيع معها ماء الوجه . وتكتسب بها الصفاقة . إذا جاز أن تعتبر الصفاقة مكسبا — هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، ففيها تشجيع على الرمرمة ، لأن الطفل بما يعطى من دراهم وقروش ، يبادر إلى الباعة المتجولين للحصول على ما عندهم من الحلويات الرخيصة ، والمأكولات التى لا يعلم إلا الله مبلغ ما تعرضت له من التراب . والذباب ثم يعود إلى المنزل وقد حمل فى بطنه أو عينه مقدارا لا بأس به من جراثيم الحميات المعوية ، أو الرمد الصديدى ، بعد أن يكون قد عقد أواصر الصداقة مع الباعة المتجولين أنفسهم . أو مع من لا خلاق لهم من أولاد الشوارع . ويسبب بذلك المتاعب التى لا حد لها لأهله ولعائلته ، وهذه الرمرمة دليل على إفلاس المنزل وعدم توفر حاجيات الطفل فيه . والمنزل هو المدرسة الأولى التى يجب أن

تبث فى الطفل مبادئ الفضيلة والنظام والخلق الكريم ، وتعوده علو النفس والهمة واحترام التقاليد الموروثة ، والعادات والآداب المرعية . فاذا ما عجز المنزل عن أداء هذه الرسالة ، نشأ الطفل من صغره على النفاق والجبن واعتاد "الزمزمة" لا فى طفولته فقط وإنما أيضا فى شبابه وكهولته وشيخوخته ، ولم يألف إلا الرخيص المبتذل من ألوان الحياة وشؤون الفكر والعمل ، وهيهات أن يبلغ بذلك مبلغ الرجال ، إذ ينعدم مثله الأعلى ، وتتأصل فى نفسه الأنانية وحب الذات وكان التضحية والبذل فى سبيل الغير ، وتمو عنده روح من الوصولية تستباح معها جميع الوسائل والاعتبارات ، مهما كان أثرها على الأخلاق والمصلحة العامة . فيظل طول حياته طفلا كبيرا ، ولعل هذا يفسر تلك الكسات التى تنتاب بعض كبرائنا أحيانا ، وتلك الكثرة الهائلة من أدعيائنا الذين لا يحسنون عملا ، ويدعون القدرة على كل شىء .

وهكذا تكون النتيجة أن تفسد عقلية الطفل ، وتفسد معها عقلية الرجل ، وتضعف بهذا وذاك شخصية الأمة ، فتبدو مفككة واهنة لا تقوى عناصرها على مواجهة الشدة والكفاح فى سبيل الواجب .

سيداتى . انسانى . سادتى :

لقد وصل الحال بتدليل الأولاد فى مصر وعدم الاعتراف بشخصياتهم إلى حد غير مقبول ، فهم كما قلنا لعب للتسلية لا أكثر ولا أقل . يطلق عليها أسماء فى غاية الغرابة . قد يكون من المسموح به أن يسمى الطفل من باب التدليل وفى دور الطفولة المبكرة . ميمى أو سوسو أو لولو . أما أن تلازمه التسمية وهو شخص كبير فهـذا ما لا يليق مطلقا . فمن فسد الذوق وفوضى الأوضاع أن تقبل السيدة المحترمة . ربة العائلة أن تنادى بين أولادها وأحفادها بديدى ، أو فيفى ، ولا يستشعر وقارها شيئا ولو قليلا من الحياء والخجل .

هذا ولا شك مسخ وأشد مسخا أن تجد إنسانا غليظ الجسم عملاقا يسمى زيزى مثلا ، هل هذا الشخص الذى يقبل لنفسه هـذه التسمية بنى آدم ؟ هل يمكن أن يكون فيـه أمل أو رجاء ؟ هل يمكن أن يعتبر مسئولا عن عمـله أو عائلته وقد وصلت به الليونة وضعف الرجولة إلى هذا الحد .

هل هذا الطفل الكبير الجسم له مثل أعلا وفكرة قومية وواجب وطنى ، يحرص على القيام به ، ويموت عند اللزوم فى سبيله . وهل الأمة المكونة من أمثال هذا المخلوق تستطيع أن تتطلع إلى مكانة عزيزة ومقام كريم ؟

سيداتى . آنساتى . سادتى :

إن الزمن يمر بنا وكله دروس وعبر ، وإذا كان الانسان يحصد ما قد زرع فان الوطنية والحكمة والكرامة كلها تقضى علينا بأن نغرس فى أولادنا منذ صغرهم روح الرجولة والشهامة والشعور بالواجب نحو الوطن والنفس والغير ، وأن نذكى فيهم نزعة الإباء والشمم ورغبة

الطموح والتطلع الى المثل العليا، والترفع عن توافه الأشياء ورخيصها ليكونوا فى غدهم عمادا لهذا الوطن الكريم، تقوم على رجولتهم الحقة، وقويم أخلاقهم وعميق اخلاصهم، وايمانهم مصرنا العزيزة. مصر التى نريدها منيعة الجانب متماسكة القوى والعناصر، على أساس متين من الفضائل الانسانية والذاتية. فتستطيع أمتنا الخالدة أن تستمد دائما روح الاطمئنان والثقة، من وطنية أبنائها وإيمانهم بها. من قوة نفوسهم وسلامة أبدانهم وعقولهم.

وإنه لمن الواجب الوطنى على كل فتى وفتاة من شبابنا، وهو أمل البلد وعدتها فى مستقبلها، أن يرفضوا للصغار من إخوتهم وأقاربهم معاملة اللعب، وأن يفرضوا فيهم اصدقاء نبغاء يميزون ويدركون الأمور اذا ما شرحت لهم.

كذلك من البر بالنفس والاحتفاظ بالكرامة، أن يرفض كل انسان لنفسه هذه التسميات الغريبة، التى لا تصلح الا لبعض الحيوانات الأليفة، كالكلاب والقطط وبعض خيول السبق.

وان علينا اذا ما أردنا القيام بالمسئولية كبارا، أن نتعود فهمها ونحن صغار. ولنعلم جميعا أن زماننا فيه جد وفيه هزل، وان من أكبر عوامل النجاح فيه، أن نتعود عدم الخلط بين الحالين.

عبد الشافى اللبان